

الأحد 20-07-2008

324- استشارات مهنية (6)

زخم الطاقة، والإيقاع الحيوى، واختيار الجنون (2 من 2)

كيف يكون الجنون حلاً؟؟!!

مقدمة:

هذه هي كلمة الرد على الاستشارة الخاصة بالحالة التي عرضها الأسبوع الماضى الزميل د. منير رزق الله من مستشفى العمورة بالإسكندرية، وقد سبق أن علقنا على أغلب ما وردنا فقرة فقرة (يومية الأحد: 13-7-2008 "زخم الطاقة، والإيقاع الحيوى، واختيار الجنون "1 من 2") ونصح بالرجوع إليها قبل قراءة تعليق اليوم،

ونبدأ بنشر نهاية النشرة السابقة لإمكان التتبع، وإن كان هذا لا يغنى - فى رأينا- عن مراجعة النشرة الماضية برمتها...

.....
أولاً: نهاية الحلقة السابقة:

د. منير رزق الله

.....الأمر الذى لفت نظرى بشدة ومن أجله كتبت لخضرتك كل هذا، هو التغير الذى حدث بعد انصراف زوجها وقريبته (من الزيارة) حيث عاد إليها الهدوء فجأة وعادت تتكلم بطريقة طبيعية واعتذرت لى عن طريقة تصرفها. وعندما سألتها عما دعاها للتصرف أمامهم بهذا الشكل، قالت وهى تضحك "حبيت أعمل لهم كارت إرهاب " ولما سألتها إرهابهم بماذا؟ أجابت بما معناه: عشان يخافوا ويمشوا وفى نفس اليوم مساء كانت تقارير الممرضات عنها أنها كثيرة الحركة والكلام وبصفة خاصة الضحك المستمر بدون سبب واضح، وكان هذا أول يوم يكتبون عنها أى أعراض واضحة.

د. يحيى:

نحن نخطئ عادة حين نقيس المريض (الذهانى خاصة) بما نقيس به الشخص العادى.

إن اعتراف المريضة هنا أنها زوّدتها أصلاً "عشان تعمل لهم كارت إرهاب"، لا يعنى أنها تصنعت ذلك، وقد نفيت أنت ذلك فيما بعد، إنه يعنى أكثر أنها أطلقت هذا الجانب (مستوى الوعي، حالة الذات، حالة العقل أو أى مُسمى يشير إلى التعدد) من ذاتها ليفعل ما يشاء، ويقول ما يريد، مما لم يكن في مقدورها أن تقوم به أثناء السلامة خارج المستشفى، وهذا أحياناً ما يسمى المكسب الثانوى للمرض secondary gain

د. منير ..

..... اليوم تحدثت معها مرة أخرى عن نفس الموضوع [وكانت بالفعل لا تستطيع منع نفسها من الضحك طول الوقت وإن بكت مرة أو مرتين] وسألتها بطريقة مباشرة : هل تستفيدين بأى شيء من هذا الجنون؟ ولم يكن في بالى الاستفادة بمعنى أنها متمارضة أو شيء من هذا القبيل وإنما بمعنى أنها ربما تستخدم الجنون سواء بطريقة واعية أو غير واعية للدفاع عن نفسها مثلاً في بيئة صعبة. وجاءت إجابتها لتؤكد لي إنطباعي..قالت ما معناه: إن الجنون بالفعل مفيد أحياناً في التعامل مع هؤلاء الناس. وكان من ضمن ما قالته إنها في مرة قدمت بلاغ في قسم الشرطة أن حماها حاول الإعتداء عليها وقالت ومي تضحك ما معناه "جنونة بقي!!" وعندما سألتها هل تكون واعية بما تفعله مثلما حدث أمامي أمس مع زوجها؟ قالت إنها تكون واعية تماماً بما تفعله [وإن شعرت أنها ترددت قليلاً في الإجابة.]

وقد أجابت عن نفس السؤال بإجابة معاكسة بعد دقائق.

.....

د. يحيى:

لقد أثرت يا د. منير بملاحظاتك، ثم تساؤلاتك هذه قضية جوهرية، أعتقد أنها أساسية في ممارستي للطب النفسي طول نصف قرن، وهى ليست قضية جديدة ، وهى ما يمكن أن تسمى "اختيار الجنون حلاً - (برغم فشله في النهاية)"

هذه القضية لها صياغات متعددة مثل:

S "الجنون هو فعل ، وليس مجرد رد فعل reaction but is essentially an action

S "إن في الجنون لعقلاً" هذا تعبير المرحوم أستاذنا الدكتور مصطفى زيور على ما أذكر

S غائبة الجنون (الفصام): إن للجنون غاية يريد أن يحققها، وهذا هو منطلق سيلفانو أريتي في كتابه "تأويل الفصام" Interpretation of Schizophrenia

S لغة الفصام وهو ما نسبه "شولمان" إلى مدرسة ألفرد أدلر (في كتابه "مقالات في الفصام Essays in Schizophrenia)

إشكالية النظر في هذه القضية تقع تحت عناوين مثيرة للجدل ومنها:

- الإرادة الحرة، والخون، وحدود المسئولية
 - مستويات الوعي، وتعدد الذات
 - المكسب الأولي والمكسب الثانوي، من المرض النفسي والخون خاصة
 - "الخل المرضى" في مقابل "الخل العلاجي"
- وأحسب أن الامر يحتاج إلى أن نناقشه بشكل أدق في وقت أرحب، فنؤجله إلى الأحد القادم، إن كان لنا عمر.
- (انتهى المقتطف من النشرة السابقة)

ثانيا: تعقيب اليوم 20 يوليو 2008

وها أنت ترى يا دكتور منير أن الله سبحانه قد أتاح لنا عمرا إلى اليوم، فننتهزها فرصة ونقدم ما تيسر مما نعرف ونرى:

- كيف يكون الجنون فعلا وليس مجرد رد فعل؟
 - وكيف يكون للجنون عقلا ؟
 - ثم ما هو هدف الجنون؟
 - وبأى لغة يتكلم الجنون؟
- افتراضات مبدئية:

حتى نجيب على هذه الأسئلة علينا أن نبدأ من محاولة النظر في الافتراضات التالية:

S إن في الإنسان عدة مستويات من الوعي، فاعلة متفاعلة طول الوقت، بالتناوب أحيانا، وبالتوفيق أحيانا، وبالجدل أحيانا، وبالصراع أحيانا (وغير ذلك)

S إن هذه المستويات من الوعي هي "عقول"، بمعنى: "برامج فاعلة هادفة بقائية مفيدة" ، لهدفها في وقتها، آنذاك، ثم "حالا" بشكل آخر، وأرى أن أقرب معنى لذلك هو استعمال دانيال دينيت لكلمة "عقل" في كتابه "أنواع العقول" Kinds of Minds

S إن المستويات الأدنى من العقول لا تضمحل، ولا تختفى، لحساب المستويات الأعلى، لكنها:

أولا: تبقى فاعلة في تناوب (الإيقاع الحيوى اليوماوى circadian، في النوم والأحلام خاصة)

ثانيا: تواصل التوليف مع المستويات الأعلى في أزمات النمو بوجه خاص (الإيقاع الحيوى النمائي)

ثالثاً: تتألف على فترات في خبرات الإبداع (الإيقاع الحيوى الإبداعى)

رابعاً: في الأحوال الاستثنائية (ليست بالضرورة مرضية بعد)، قد تنشط هذه المستويات الأدنى مستقلة نسبياً (لا متناوبة، ولا متوالية، ولا ضمن خبرات الإبداع) تظهر وتضغط في محاولة الإمساك بعجلة القيادة، لتوجيه السلوك والوجود بلغتها الأدنى بما في ذلك تفكيك والتحكم في المستويات الأعلى

خامساً: تحاول المستويات الأعلى أن تحول دون ذلك، ما أمكن ذلك، بالخيال الدفاعية (الميكانيزمات) المناسبة، فيظهر العصاب Neurosis أو اضطراب الشخصية Personality Disorders إذا ما أزمّن الشخص استعمال هذه الدفاعات حتى صارت سمات (معطلة) للشخصية وليست فقط أعراضاً

سادساً: قد تفشل هذه الميكانيزمات فجأة (في الذهانات الحادة - الجنون الطارئ) أو على فترات (الجنون المتفتر) أو بشكل دورى (الجنون الإيقاعى/الدورى)، وحينئذ تنجح العقول (مستويات الوعى) البدائية في القيادة لفترة تطول أو تقصر أو تستمر. (عمر الجنون)

سابعاً: الجنون - كما يظهر في السلوك الظاهرى في شكل ما نسميه أعراضاً Symptoms هو جماع كل من:

1. نشاط العقل البدائى (منفصلاً: في صورة النكوص أو العدوانية المهلكة أو ضلالات الكر والفر، أو الجنسية الفجة... إلخ)

2. آثار تراجع أو فشل أو تفكك العقل الحديث (في صورة تناثر التفكير، والعجز عن التريط الغائى، وفقد الإرادة، والانسحاب النكوصى،... إلخ)

من خلال قبول هذه الافتراضات النابعة من الفكر التطورى أساساً، مضافاً إليه بعد الإيقاع الحيوى، (النظرية الإيقاعية التطورية) يمكن الإجابة على الأسئلة المطروحة كما يلي:

S كيف يكون الجنون فعلاً وليس مجرد رد فعل؟

لآ الجنون قرار يتخذه عقل بدائى، نتيجة لفشل العقل الأحدث في استمرار امتلاك ناصية القيادة، وأيضاً فشل الإيقاع الحيوى في إعطاء هذا العقل البدائى فرصة النشاط النوى لإمكان التضفر والتأليف مع سائر العقول باستمرار.

لآ الجنون ليس مجرد رد فعل على ضغوط خارجية، أو داخلية، بما في ذلك الفشل في التكيف بميكانيزمات وآليات العقل الأحدث كما نعرفه.

لآ الجنون هو "قرار إحلال" عقل سابق، كان قادراً في يوم ما على القيادة، محل عقل حديث، وذلك بعد أن لاحظ له الفرصة نتيجة فشل العقل الحديث في الحفاظ على التوازن الخلاق، ودفع مسيرة التكيف والنمو.

لا يشترك في هذا القرار العقل المهزوم (مؤقتا) باعتبار أن قرار انتصار مستوى وطغيانه (العقل الأقدم)، هو في نفس الوقت قرار انهزام من جانب المستوى (العقل الحديث) المهزوم .

§ من هنا يأتي "اتخاذ القرار، بالانسحاب وغلبة البدائية

§ هذا القرار هو "فعل الجنون"،

§ ومن ثم يكون الجنون فعلا، وليس مجرد رد فعل.

ثم ننتقل إلى السؤال الثاني:

§ كيف يكون للجنون عقلا ؟

· أصبح من السهل الآن - لو تم قبول الفرض الأول - الرد على هذا السؤال،

عقل الجنون (بالمعنى الوارد في أنواع العقول لدينييت) هو جماع العقل البدائي المنتصر، مع بقايا العقل الحديث المهزوم .

ثم السؤال الثالث:

§ ما هو هدف الجنون؟

لا يمكن تصور الأهداف العامة للجنون بشكل يصلح كبنية أساسية نقيم عليها تفاصيل لاحقة لكل نوع من أنواع الجنون، ثم تفاصيل فردية لكل مريض (جنون) على حدة .

هذا، ويمكن تصور الأهداف العامة لفعل الجنون بإيجاز شديد مؤقتا، كما يلي:

1. الاحتجاج على اغتراب العقل الحديث عن تاريخه ومسار نمو وتطور كل العقول معا .

2. استعادة الحق في تنشيط بعض العقول البدائية لحسابها، ردا على استبعادها لصالح الاغتراب ، ضد قوانين التطور والنمو .

3. عرض نكوصي بديل للحياة حتى لو كان أقل إنسانية، لكنه يغري أن يكون أكثر حفاظا على الحياة ذاتها، ولو على حساب نوعية التواجد البشري الأحدث .

4. إعلان فشل إقصاء بقية العقول لحساب عقل واحد

5. إرهابات وعد تشكيل جديد تحت قيادة العقل البدائي (مشروع إبداع) سرعان ما يفشل: (أنظر مقتطف الصديق رامى عادل)

ثم نختم بمحاولة الإجابة على السؤال الأخير

§ بأى لغة يتكلم الجنون:

لآ الجنون يتكلم بلغات كثيرة طول الوقت، والممارس الذى يحاول "نقد النص البشرى"، وهو الاسم الذى أطلقته على فن العلاج الحقيقى، هو الذى يتقن لغات كثيرة، ويعرف كيف يترجمها إلى بعضها البعض:

- فالجنون يتكلم بلغة الأعراض (كل عرض له معنى فى إطار الغاية من الجنون: أنظر بعد)
- والجنون يتكلم بلغة الإعاقة الاحتجاجية (عرقلة التفكير مثلاً)
- والجنون يتكلم بلغة الغابة (الكر والفر : الاضطهاد والعدوان البدائى)
- والجنون يتكلم بلغة الصمت (الانسحاب إلى ما قبل الكلام)
- والجنون يتكلم بلغة الانسحاب (حتى العودة إلى الرحم)
- والجنون يتكلم بلغة الإبداع المجهض (بقع من التشكيلات الشديدة الحدة، الناقصة التكامل)
- والجنون يتكلم باللغة البدائية (الحيوانية أحياناً): الجنس الفج، والقتل الغدر مثلاً)
- والجنون يتكلم بلغة الطفولة الاعتمادية الملتذة غير المسنولة
- (وغير ذلك)

هذا علماً بأن لكل حالة مفردة لغتها الخاصة، حتى لو توحدت أو تقاربت الغائية العامة

فك شفرة حالة السيدة (ن)

كل هذا ليس رداً مباشراً على استشارة الزميل منير رزق الله عن الحالة (ن)، ولكننى وجدت أنه يستحيل على أن أرد على تساؤلاته، دون تقديم هذا الموجز الذى أعتبره "مفتاح فك شفرة الجنون عامة"، وفى محاولة شديدة الإيجاز يمكن فك شفرة السيدة (ن) مؤقناً على الوجه التالى:

- 1- هذه السيدة ولدت تحمل برامج بدائية قوية جاهزة للتنشيط مستقلة (بقدر ما هى قد تكون صالحة للولاف نمائياً وإبداعياً)، التاريخ العائلى الإيجابى جداً.
- 2- ثم إنها (وربما سائر المرضى من الأسرة) لم تتح لها الفرصة لاستيعاب نشاط هذا العقل البدائى البالغ النشاط فى ذاته
- 3- فقرر هذا العقل البدائى أن يتولى مسؤولية قيادة وجودها إلى الخلف، بعد أن تلاحقت عليها الضغوط وتراجعت كل الفرص للنمو (بافتقادها علاقة حقيقية بآخر، وعوامل أخرى)

4- حين بدأت مظاهر غلبة هذا العقل القديم (البداى) الذى "أختار الجنون"، استحلها وتمادى فيها - بعد ظهور الجنون- بدرجة من الدراية الواعية، (تأكيد الاختيار).

5- أصبح الاختيار - إذن- بعد الكسرة هو اختيار واع بدرجة أكبر فأكثر ، (في حين أنه كان اختيارا من تحت الوعى الظاهر قبل بداية الجنون).

وبعد

ماذا ينفج كل هذا التنظير ونحن أمام أسئلة مهنية عملية طرحها الزميل المستشار تحديدا كالتالى:

. إلى أى مدى يمكن أن تكون المريضة متحكمة في أعراضها خاصة في مثل هذه الحالة التى يبدو من تاريخها المرضى كل هذا الكم الهائل من الجانب البيولوجى الوراثى؟

الرد:

الجانب الوراثى لا يعفى من اختيار الجنون، بل هو يجعله اختياراً قريبا واردا، وفي نفس الوقت يجعل الإبداع (إبداع الذات بمواصلة النمو أو أى إبداع) متاحا أكثر، نحن لا نرث الجنون وإنما نرث قوة زخم الحركة، فالاختيار هنا أوجب وأصعب.

. إذا كان المريض بالفعل "واعيا" ومتحكما بما يفعلهُ أثناء الحالة المرضية [أيًا كان معنى الوعى هنا] فإلى أى مدى يمكن اعتباره مسئولا أو غير مسؤول عن أفعاله؟

الرد:

من حيث المبدأ ، فأنا أفضل أن أرى المريض مسئولا في كل الأحوال، فما بئنى على اختيار فهو اختيار،

وأنا أعتبر ذلك - ضد كل الشائع- هو احترام لفعل الجنون، وبالتالي : للمجنون، فيصبح بذلك بمثابة دعوة للمجنون للمشاركة في العلاج بالعدول عن اختياره، بعد أن نريه فى الثمن الذى دفعه ويدفعه لاختياره الجنون .

فإذا كنا سنقبل أن الجنون اختيار، وأنه عقل آخر، فلا بد أن يصل إلى المريض وإلى المجتمع أن هذا العقل الآخر يعاقب على أفعاله الخارجة على القانون ما دام هو الذى اختار ما هو فيه باعتباره عقل قادر على التمييز، والفعل، بطريقته.

إن استعمال إرادة الجنون هو الذى قد يؤدى إلى استعمال إرادة الجريمة،

هذا هو الموقف من حيث المبدأ تنظرا،

أما عند التطبيق، فالامر يختلف تماما،

وقد وقعت في مآزق كثيرة بسبب صعوبة التوفيق بين التنظير والتطبيق، لأننا في الطب النفسي الشرعي نتحرك داخل نطاق منطوق القانون ومبدأ الشرعية

القانون ليس نظرية عملية، القانون قواعد وأحكام،

مبدأ الشرعية يقول: لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص قانوني
مكتوب،

والطبيب النفسي الشرعي ملزم بهذا النص الذي يقول بضرورة توفر "الركن المعنوي للجريمة"، حتى تكتمل أركان الجريمة التي تستحق العقاب،

الركن المعنوي هو توفر كل من الوعي، والتمييز، والإرادة عند المجرم، وقت ارتكاب الجريمة

هنا نقف طويلا أمام القانون الذي يعامل الوعي باعتبارها الوعي الظاهر، ويحكم على الإرادة باعتبارها إرادة الإنسان المائل للمحاكمة كواحد، له وعي واحد، وإرادة ظاهرة واحدة. القانون لا يتعامل مع الوعي الثاني، ولا الوعي البدائي، ولا الوعي التطوري، فكل هذه المستويات في نهاية النهاية تخرج إلى السلوك من خلال الوعي (العقل) الظاهر، المفروض أنه قادر على التحكم فيها.

برغم كل هذا الوضوح، فإن المسألة تظل نسبية،

وتتداخل هنا كل من "فلسفة القانون"، والهدف من العقاب (الردع العام، والردع الخاص في علم العقاب)، وضمن الخبر (الطبيب النفسي الشرعي)، ويقين القاضي، تتداخل كل هذه العوامل مجتمعة، لتكون محصلتها هي الإجابة عن سؤالك الصعب هذا يا دكتور منير.

• ما معنى الوعي والاستبصار هنا؟ وما قيمة الاستبصار إذا كانت المريضة "تستخدم" جنونها ليفيدها في أحد جوانب حياتها؟

الرد

الوعي غير الاستبصار غير البصيرة،

لابد أن نتفق على حدود ومعنى استعمال كل كلمة في مجالها

الوعي الذي استعملناه هنا بمعنى العقل هو غير الوعي بمعنى الدراية awareness غير الوعي الذي هو ضد اللاوعي (اللاشعور) وأظن أنك لا تعنى أيا من ذلك، وربما تعنى "التمييز" الذي جاء في نص الركن المعنوي للجريمة الذي سبقت الإشارة إليه في توصيف الجريمة.

الاستبصار كلمة لا تستعمل غالبا إلا مرادفة للبصيرة

أما البصيرة فهي متعددة المستويات من أول الإقرار بالمرض النفسي وطبيعته، حتى اختبارها بالالتزام بالعلاج والامتثال للتأهيل حتى الشفاء

البصيرة أنواع، وكثيرا ما نسمى النوع العاجز من البصيرة "بصيرة معقلنة"، حيث هي مجرد إقرار لفظي فكري بالجارى، بمعنى أنها رؤية لا تدفع إلى اتخاذ أى إجراء أو فعل المفروض أن تستحثه معرفة المريض لطبيعة مرضه، فيسعى بالتالى للعلاج أو احتواء المرض لما هو أفضل من العلاج،

هذه البصيرة المشلولة تصبح عبئا على مسيرة العلاج، لأنها توهم بالتعاون بلا تعاون، وتغرى بالتقدم على المسار إلى الشفاء وهى ليست إلا استمناء عقليا أو فرجة في الخلد.

على هذا الأساس يمكن أن تكون البصيرة لعبة عقلية تعلن ما يشبه الصدق لتبرر التمدادى في الخلد السلبى، مثل مريضتنا هنا التى تقر أنها عملت للزوار "كارت إرهاب"، فهى بذلك قد استعملت بصيرتها للتمدادى فيما تصورته عدم المسئولية بلى الذراع أو الابتزاز، هذه ليست بصيرة، فلا ينبغى أن نصف لها.

من كل ذلك يمكن القول أن بصيرة المريض بطبيعة جنونه ومساره، لا تلزمه تلقائيا بمزيد من المسئولية، وفي نفس الوقت لا تزيد الجنون مسئولية، بل قد تكون مجرد رؤية بلا فاعلية كما أسلفنا.

أما عما إذا كانت المريضة تستخدم جنونها ليفيدها في أحد جوانب حياتها، فهذا وارد، وهو ما يسمى التمدادى في المكاسب الثانوية (السلبية في النهاية) لفعل الجنون، إذن تعبير ما يفيدها يمكن أن يراجع لنكتشف أنه يفيد جنونها، الذى حصيلته سلبية في نهاية النهاية.

أعتقد أن البصيرة التى تطل علينا من مساهمات وحوار الصديق "رامى عادل" هى نموذج لبصيرة متحركة تحاول طول الوقت،

يا ترى هل تتابع يا د. منير حواراته وإسهاماته المضيئة بتلقائياته المتحدية.

ما رأيك نختم هذه الاستشارة بالإنصات إلى ما قاله في بريد الجمعة الماضى كالتالى:

رامى عادل: حوار/ بريد الجمعة 18 يوليو 2008

قد يعجب شخص بالجنون كفكر وفعل خارج، الا ان إدمانه - بعد التخطيط له- طريق شائك بالغ الخطر، ومن عمق أثارته يستحلى الشخص اللعبة الطائشه اللانهائيه. فيختار واقعا مغائرا لا يكتمل ايدا. متأرجحا بينه وبين الهزيمة. رافضا التخلى او التنازل عن يوتوبيا يسكنها الخلد. لكن شيئا من الجنون قد يكون مسكنا فعلا مستعيزين به عن لوازم الواقع

وبعد

كنت قد أشرت إلى عدد من القضايا تثيرها تساؤلاتك يا دكتور منير، أرجو أن تسمح لى أن نؤجل الحديث عنها حالا، لأنها قد تجرنا إلى تنظير أكبر مما يحتمله باب الاستشارات المهنية هنا،

خذ مثلاً قضية الحرية والجنون والإبداع، وكيف تناولتها في كتاب "حركة الوجود وتحولات الإبداع" وإليك مجرد الفهرس لأغريك بالرجوع إليه في الموقع، ولتعذرنى لعلك تفهم أنئذ وتدرك مبررات التأجيل.

<p>الفصل الثالث عن الحرية والجنون والإبداع استهلال</p>
<p>الإشكالة والمنطلق - إزالة القدسية عن أوهام قديمة - تحديات - تعدد الذوات - بعد الزمن - الحرية والجنون - السماح بالجنون (حق الجنون) - عن طبيعة الجنون والاختيار - ماهية الإرادة - الإرادة والآخر تشكيلات الحرية مستويات الاختيار - تجليات مستويات الحرية - المسار في حالة الجنون - المسار في حالة الإبداع - المسار في حالة العادية</p>
<p>الحرية: نبض الحركية في ساحة مرنة - مقومات الحرية وقيودها - المقومات القبلية للحرية - عن الجسد والجسم - الجسد عائق أم مجال - مفاهيم ومفاهيم (مستويات المفاهيم) - قراءة في شهادات المبدعين والنقاد - أمثلة إضافية من شواهد إكلينيكية - تعقيب (من الحياة العامة)</p>

